الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أحمد بوقرة بومرداس
كلية الآداب واللغات

ملتقى دولي بعنوان:" تأثير إعجاز القرآن الكريم في الدرس النقدي واللساني العربي".
يومي 21-22 نوفمبر 2023

عنوان المداخلة:

التفكير البلاغي في التفاسير المعاصرة

الدكتورة:

مريم بوعافية

بطاقة المشاركة:

- الاسم: مريم.
- اللقب: بوعافية.
- التخصص: دكتوراه تفسير وعلوم القرآن.

- الرتبة: أستاذ محاضر ب.
- المؤسسة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة
- الهاتف: 0699812077
- العنوان البريدي: bfiameriem.25@gmail.com

- عنوان المداخلة:

التفكير البلاغي في التفاسير المعاصرة

- المحور الثاني: إعجاز القرآن الكريم وظهور الدرس البلاغي.

مقدمة:

القرآن الكريم هو معجزة الله على أرضه، وحجته على عبيده، خير ما شغلت به الأوقات، وصرفت فيه الجهود والطاقات، وزينت به الصدور والحافظات.

أبهر العلماء وأعجز الفصحاء، نالت العلوم التي ارتبطت به حظوة فكانت هي الصفوة، اكتسبت شرفها من شرفه إذ العلوم تشرُف بشرف موضوعاتها وسمو غاياتها؛ ولعل من أجلها علوم العربية وبالأخص علوم البلاغة فهي الأكثر اتصالا بالقرآن الكريم، بل إن الانشغال بها اقترن بالبحث في إعجازه وأسراره والرد على الملاحدة والمشككين في مصدره.

وقد عُنيت كتب التفسير المعاصرة ببيان الإعجاز القرآني، وأظهرت في ثناياها علوم البلاغة خدمة له، ومن تلك التفاسير تفسير لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني؛ الذي اهتم بمباحث البلاغة فكانت له التفاتات قيمة، ونكت لطيفة، شكلت في مجموعها ملامح الدرس البلاغي في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

إذ كان التعلق بالقرآن الكريم والتبحر في إعجازه من أهم الأسباب التي دفعت المفسر للبحث في ميدان البلاغة؛ فالقرآن ملهمه الأول، أثر بنظمه العجيب، وتركيبه الفريد في صقل ذوقه البلاغي فألف وأبدع، وكتابه (البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها) نموذج رائد في بابه، عكس أثر القرآني الكريم وإعجازه في التفكير البلاغي عند المفسر قبل أن يؤلف في التفسير مؤلف مستقل، إذ كانت جل الشواهد المذكورة فيه من القرآن الكريم.

أدرك مكانة علم البلاغة بالنسبة لعلم التفسير، وقعّد لذلك في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y)، مؤكدا على أن الهدف الأسمى الذي تسعى إليه البلاغة يتمثل في الوصول إلى إدراك جوهر الإعجاز في القرآن.

ومن أجل ما سبق جاءت هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: **"التفكير البلاغي في التفاسير المعاصرة تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أنموذجا"**؛ نتحدث فيها عن أثر القرآن الكريم وإعجازه في الفنون البلاغية التي وظفها المفسر، لنبرز تمكنه منها وقدرته الإبداعية في هذا المجال؛ ويرمي البحث كذلك إلى إثبات شرعية دراسة البلاغة العربية وصلاحيتها لكل عصر، خاصة وقتنا الحاضر الذي تحارب فيه اللغة العربية وعلومها، وبالأخص علم البلاغة.

مشكلة البحث:

يطرح هذا البحث إشكالا رئيسيا وهو كيف أثر القرآن الكريم وإعجازه في التفكير البلاغي عند عبد الرحمن حبنكة الميداني؟

خطة البحث: من أجل التفصيل فيما سبق بيانه تم تقسيم مضمون المداخلة بعد المقدمة والمدخل التمهيدي إلى مطلبين تعقبهما خاتمة.

المطلب الأول: وسأجعله عبارة عن مدخل تمهيدي لمضمون البحث أتحدث فيه عن الدرس البلاغي عند المفسرين بشكل عام، ثم أعرف فيه بعبد الرحمن حبنكة الميداني وأعطي لمحة عن تفسيره.

المطلب الثاني: ملامح الدرس البلاغي في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

الفرع الأول: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y.

الفرع الثاني: عناية المفسر بالبلاغة في ثنايا تدبره للآيات.

الفرع الثالث: تخصيص المفسر ملحق بلاغي لكل سورة تدبرها.

المطلب الثالث: فنون البلاغة في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

الفرع الأول: علم البيان.

الفرع الثاني: علم المعاني.

الفرع الثالث: علم البديع.

وأثناء عرض مضمون البحث سأجتهد في ذكر النماذج التطبيقية من تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، في محاولة لاستخلاص مميزات الدرس البلاغي المعاصر ذي الأصول التجديدية المنضبطة، والتعرف على أبعاده، وأثره في بيان المعاني.

المطلب الأول: مدخل تمهيدي.

ضمنت البحث مدخلا تمهيديا أتحدث فيه بداية عن الدرس البلاغي عند المفسرين فأعطي لمحة عن نشأته وتطور البحث فيه في فرع أول؛ ثم انتقل في الفرع الثاني للتعريف بالمفسر وتفسيره بإيجاز فأنبه على أهم ما ينبغي معرفته عنهما.

الفرع الأول: الدرس البلاغي عند المفسرين.

حظي القرآن الكريم بعناية العلماء والباحثين بما لم يلقه كتاب قبله ولا بعده قط، إذ ما زال العلماء مذ نزوله إلى يوم الناس هذا، يتعاقبون على دراسته، نهلا من معينه الذي لا ينضب، وتزودا من معارفه وهداياته؛ وقد كان للاهتمام به عظيم الفضل في نشأة وتطور عديد العلوم، ولعل من أبرزها علوم البلاغة العربية بفنونها المختلفة، حيث كانت بداياتها على يد اللغويين والنحاة حين أشاروا إلى قواعدها في خضم دراساتهم وبيانهم لمعاني آيات القرآن الكريم والشعر العربي، لتتطور بعد ذلك على أيدي المتكلمين الذين تحدثوا عنها أثناء كلامهم عن إعجاز القرآن الكريم لاسيما بعد ظهور نظرية "الصرفة"[1]، ثم أصبح الدور على المفسرين الذين لم يغفلوا هذا الجانب المهم في بيانهم لمعاني القرآن الكريم، بل حرصوا عليه وكان من الأدوات التي لا غنى عنها لمن تصدى للتفسير على تفاوت بينهم، فكان الحس اللغوي والنفس البلاغي دائما حاضرا في تفسيراتهم؛ تطرقوا للموضوعات البلاغية وساهموا في تطويرها وتنظيمها وتبويبها وعلى رأسهم الطوسي (ت: 460هـ) في تفسيره "التبيان في تفسير القرآن"، والزمخشري (ت: 538هـ) في تفسيره "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" الذي جعل علمي المعاني والبيان أهم عدة لمن يريد تفسير القرآن الكريم[2].

وقد أكّد غير واحد منهم على مكانة ومنزلة العلم بالبلاغة العربية في تفسير القرآن الكريم، يقول الواحدي (ت: 468هـ): "إن طريق معرفة تفسير كلام الله تعالى تعلم النحو والأدب، فإنهما عمدتاه، وإحكام أصولها، وتتبع مناهج لغات العرب فيما تحويه من الاستعارات الباهرة، والأمثال النادرة، والتشبيهات البديعة، والملاحن الغريبة، والدلالة باللفظ اليسير على المعنى الكثير، مما لا يوجد مثله في سائر اللغات"[3].

وعليه فإن المفسرين منذ نشأة التدوين اهتموا بالجانب البلاغي في تفاسيرهم، وظهر ذلك بجلاء أيضا فيما دبجوا به أسفارهم من مقدمات، إذ كان الجانب البلاغي دائما حاضرا فيما كتبوه وخاصة في حديثهم عن إعجاز القرآن الكريم، ومن ذلك ما كتبه ابن عطية في مقدمة "المحرر الوجيز"[4]، وكذا عند القرطبي في مقدمة "الجامع لأحكام القرآن"[5]، وابن جزي في "التسهيل لعلوم التنزيل"[6].

وهذه الإطلالة السريعة تنبئنا بأن الحس البلاغي كان دائما حاضرا عند المتقدمين من المفسرين في بيانهم لمعاني القرآن الكريم، وكذلك كان الحال بالنسبة للمتأخرين بين مكثر ومقل أيضا، يقول الشوكاني: "وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب"[7]، ويلحق به أيضا القاسمي وابن عاشور وعبد الرحمن حبنكة الميداني، وهذا الأخير هو محور الدراسة في الشق التطبيقي من هذا البحث.

فقد كان للبلاغة العربية مكانة خاصة عنده برزت بداية في كتابه: "البلاغة العربية أسسها، وعلومها وفنونها" في مجلدين جمع فيه كما جاء على

---

(1) _ نسبت إلى إبراهيم النظام المعتزلي، وقد رد عليه تلميذه المعتزلي الجاحظ في كتابه "نظم القرآن"؛ ومن المتكلمين الذين كتبوا في إعجاز القرآن وتحدثوا عن الإعجاز البلاغي: علي بن عيسى الرماني (ت: 386هـ) في كتابه: "النكت في إعجاز القرآن"، أبو بكر الباقلاني (ت: 403هـ) في كتابه "إعجاز القرآن"، عبد القاهر الجرجاني في كتبه منها "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

(2) _ ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، ج1، ص43 وما بعدها.

(3) _ التفسير البسيط، ج1، ص266.

(4) _ ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص48.

(5) _ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج1، ص69.

(6) _ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص26.

(7) _ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ص14-15.

لسانه: "ما انتهى إليه السابقون من علوم البلاغة، محاولا التذليل والانتقاء واستيعاب الأمهات والمهات ومتجاوزا التفصيلات التي لا تكسب ملكة تذوق الجمال البياني، والتي دخلت في علوم البلاغة بتأثير الدراسات المنطقية"[1].

وقد وظف ذلك أثناء تدبره لآيات القرآن الكريم، فمفسرنا اعتنى بعلم البلاغة وما يدخل تحته من أنواعه بما يخدم الدرس التدبري من الناحية البلاغية، وقد ضم تفسيره نفائس بلاغية كثيرة قعد لها في كتابه "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y"، وطبقها أثناء تدبره للسور ثم جمعها في ملاحق بلاغية كان يردف بها كل سورة أتم تدبرها فيكون بذلك جمع بين التنظير والتطبيق.

الفرع الثاني: التعريف بعبد الرحمن حبنكة الميداني وتفسيره "معارج التفكر ودقائق التدبر".

ولد الشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني في عام ألف وثلاثمئة وخمس وأربعين (1345هـ /1927م)، في حي الميدان جنوب مدينة دمشق السورية، لأب من أعلام دمشق وهو الشيخ حسن حبنكة الميداني، وأم لقبت بـ"ست الشام" وهي نظمية ابنةُ إبراهيم السودان.

نشأ في بيئة صالحة قلما تيسرت لغيره في هذا العصر، إذ فيها العالمُ المفكرُ وفيها المحب للعلم الساعي لخدمة أهله، فهو سليل إحدى العائلات الدمشقية العريقة التي كان قوامها العلم وهدفها الدعوةُ إلى الله، وقد شابه الابن الأكبر أباه وسار في العلم على خطاه، وكان أولُ من نال بركة العلم الذي أسسه والده وسعى من خلاله لتخريج كبار العلماء بإنشائه لمعهد التوجيه الإسلامي.

وقد كان لهذه النشأة المباركة والبيئة الصالحة الأثر الكبير في مسيرته العلمية والدعوية وكذا في مؤلفاته بعد ذلك، ولعل من أشهرها ما كتبه في آخر سنوات حياته تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر) فهو زبدة أعمال الشيخ وخلاصة أفكارِه وقمة إنتاجه العلمي التدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، جاء "نتيجةَ دراساتٍ طويلة متأنية، وبحوثٍ قرآنية متنوعة، وتأملاتٍ فكرية عميقة"[2].

أقام الشيخ تدبره وفق ترتيب نزول سور القرآن الكريم وفق منهج كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y)، وقد صدر منه خمسةَ عشر مجلدا تدبر فيها الشيخ السور المكية كلَّها والتي تمثل زهاء ثلثي تفسيره وشرع في تدبر السور المدنية فبدأ بسورة (البقرة) لكن حال الأجل دون تحقيق الأمل؛ حيث انتقل إلى رحمة ربه وعمره ثمانون عاما، في صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة من سنة ألف وأربعمائة وخمس وعشرين 1425هـ، الموافق لـ: 11 أوت 2004.

ولم يتم عمله المتميّز الذي كان يسابق الزمن في إنجازه، ويغالب شدة المرض ووطأتَه في إتمامه[3].

---

[1] _ البلاغة العربية، ج1، ص6.

[2] _ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص57 وما بعدها.

[3] _ ينظر: التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، مجد مكي، ص58.

المطلب الثاني: ملامح الدرس البلاغي في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

شغف المفسر بفنون البلاغة في تدبره لسور القرآن الكريم، ولازمه الحس البلاغي فحرص على إبرازه بجلاء والاهتمام به قدر المستطاع، وتجلى ذلك في مناح ثلاثة سيأتي التفصيل فيها.

الفرع الأول: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y .

يرتكز علم التفسير على قواعد وأصول، اجتهد عبد الرحمن حبنكة الميداني في التنظير لها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y)، والذي جاء نتيجة تدبر طويل لمدة تزيد عن أربعين عاما وكان فاتحة جهوده في علم التفسير[1].

يقول : "وبعد فقد فتح الله Y علي خلال تدبري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها، وهذه القواعد تقدم للمتدبرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم"[2].

وقد اعتمد في عدد من القواعد الأربعين على الجوانب البلاغية في القرآن الكريم، ووضع فيها أكثر من عشر قواعد، وكانت رؤيته عميقة لا يكتفي فيها بمجرد شرح الألفاظ بل يتجاوزها إلى سبر دلالاتها، كما يتبحر في المعاني ويدقق في الوجوه البلاغية والغرض الفكري منها؛ والمفسر بصنيعه هذا متبعا لا مبتدعا فقد سبقه إلى ذلك عدد من العلماء فقد عقد بدر الدين الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" أنواعا من علوم القرآن في هذا المجال، منها: النوع الرابع والأربعون في "الكناية والتعريض"، وهو صنيع جلال الدين السيوطي أيضا في "الإتقان في علوم القرآن" حيث عقد مباحث بلاغية متعددة منها: الاستعارة والتشبيه وغيرها، ومن المعاصرين عبد الرحمن السعدي وخالد السبت وغيرهم[3].

فالقواعد المتعلقة بالبلاغة كانت من أوسع الأبواب التي تحدث فيها من ألف في قواعد التفسير أو قواعد التدبر أو قل علوم القرآن بشكل عام، وذلك باعتبارها من الأسس التي عليها مدار التدبر ولها مكانتها الخاصة في بيان معاني آيات الذكر الحكيم.

هذا وإن كان لصاحب "قواعد التدبر الأمثل" اجتهادات انفرد بها وخالف بها من سبقه أو أضافها وقد كان هذا موضوع بحث في رسالة دكتوراه بكاملها[4]، وسأكتفي هنا بذكر بعض القواعد التي لها صلة مباشرة بعلم البلاغة، بيانا للمقصود وتنبيها بها على غيرها وهي كالآتي:

1. القاعدة الثانية عشرة: حول لزوم فهم الآية وفق ترتيب نظمها.

جعل المفسر نظم الآية وترتيبها من ضوابط الفهم السديد يقول: "ينبغي فهم الآية وفق ترتيب نظمها"[5]، وذلك لأن تغيير نظم الآية وترتيبها قد يؤدي إلى تعطيل فهمها على الوجه المراد يقول: "أما الفهم الذي يقوم على أساس التغيير في النظم القرآني بالتقديم أو بالتأخير لجملة أو كلمة فقد تجر إلى فهم غير صحيح أو غير مراد، أو إلى تعطيل علاقة النص"[6].

2. القاعدة الرابعة عشرة: حول اقتضاءات النص ولوازمه وروابطه الفكرية، ومحاذيفه التي حذفت منه للإيجاز والتضمينات التي يضمَّنُها، وهذه القاعدة أسال فيها الكثير من الحبر، وضمت الحديث عن مجمل ألوان البلاغة[7].

---

[1] _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص97.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

[3] _ ينظر: البرهان في علوم القرآن، مج2، ص300/ الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص142/ القواعد الحسان في تفسير القرآن، ج1، ص32/ مختصر في قواعد التفسير، خالد السبت، ص25.

[4] _ ينظر تفصيل الحديث في هذه القواعد: قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق، رشيد بوعافية، ص254 وما بعدها.

[5] _ قواعد التدبر الأمثل، ص207..

[6] _ المرجع نفسه، ص239.

[7] _ المرجع نفسه، ، ص208.

3. حول التكرير وأغراضه: قرر فيها أن التكرار تكاملي يضيف بعضه من المعاني ما ليس في غيره[1].

4. القاعدة الحادية والعشرون: حول النظر في ملاءمة الأسلوب البيانيّ للهدف منه، ويريد بهذه القاعدة بيان تناسب الأسلوب المختار للغرض منه وتناسب باقي الأساليب مع أغراضها يقول: "فكلما هدف من أهداف الكلام أساليب تلاءمه وتناسبه، ومثل ذلك الثوب المفصل على هيكل جسم بإحكام"[2].

5. القاعدة الثانية والعشرون: حول البحث عن الوجوه البلاغية والغرض الفكري من الصور البلاغية في القرآن، وهذه القاعدة نبه فيها إلى أمرين اثنين يجدر بالمفسر الاهتمام بهما:

الأول: الإشارة إلى الصور البلاغية الموجودة في آيات القرآن الكريم.

الثاني: استجلاء الغرض الفكري من هذه الصور.

يقول: "ولدى بحث أي جانب بلاغي لابد من استجلاء الغرض الفكري من الصور البلاغية"[3]، أي إبراز هدايات الآيات وما تتركه من آثار في نفوس السامعين، لينعكس بعد ذلك اعتقادا وسلوكا.

وصفوة القول في ذلك أن المفسر بما ذكره قعد أصولا للتدبر، واجتهد فيها فاستخرج منها ملح ولطائف تعود بالنفع على المتدبر، وفي هذه القواعد وغيرها كان يمثل بالآيات القرآنية ويطبق عليها ما توصل إليه، وما ذكرناه يعطي لمحة عن مقدار عناية الشيخ بالجانب البلاغي؛ فمن الموضوعات التي أولاها المفسر أهمية كبيرة هي الجوانب الإعجازية مؤكدا على الإعجاز البياني والجانب البلاغي بصفة خاصة، وقد ألّف على نهجها تفسيره وسماه: (**معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله** Y).

الفرع الثاني: عناية المفسر بالبلاغة في ثنايا تدبره للآيات.

شغل الجانب البلاغي حيّزا كبيرا من تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وبرز فيه تمكّن المفسر من علوم اللغة عامة وقدرته الإبداعية في هذا المجال، فقد حرص على دراسة فنون البلاغة الثلاثة في تفسيره، واهتم بها تنظيرا وتطبيقا؛ إذ كان يقف أحيانا ويعرف ببعض أقسامها، ومثال ذلك قوله: "من الفنون البلاغية "التشبيه" وهو الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما"[4]، فالمفسر هنا ذكر تعريف التشبيه في الاصطلاح وإن كان لم ينبه على ذلك كعادته بضبط التعريف اللغوي ثم الاصطلاحي، وهو صنيعه أيضا في تعريفه للاستعارة يقول: "من الفنون البلاغية "الاستعارة" وهي استعمال لفظ ما في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب"[5]، وعرف الكناية بقوله: "من "من الفنون البلاغية التي يعبر فيها عن المراد بتعبير دلالته غير مباشرة "الكناية".

وهي عند علماء البيان: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يشار به عادة إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه"[6]؛ والمفسر هنا صرح باعتماده على من سبقه من العلماء في تعريفه لفنون البلاغة.

وما ذكر يدخل في باب التنظير لعلم البلاغة وهو لم يأخذ حيّزا كبيرا من التفسير بل كانت له -رحمه الله- وقفات سريعة وضّح فيها ما قد

---

[1] _ المرجع نفسه، ص307.

[2] _ المرجع نفسه، ص504.

[3] _ المرجع نفسه، ص499.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص791.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص784.

[6] _ معارج التفكر، مج11، ص786. ينظر: مج12، ص421.

يلتبس على العامة، أما الشق التطبيقي فهو الذي كان له أوفر الحظ والنصيب، فقد حرص على التطبيق على فنون البلاغة بأنواعها واستخراجها من الآيات القرآنية، وذكر الغرض الفكري منها.

الفرع الثالث: تخصيص المفسر ملحق بلاغي لكل سورة تدبرها.

تدبر عبد الرحمن حبنكة -رحمه الله- أكثر سور القرآن الكريم، وكانت نزعته إلى الاجتهاد وإعمال الفكر والنظر لتدبر آيات الذكر الحكيم والتفكر في معانيها، والتبصر في حقائقها وإدراك مقاصدها بارزة في تحليلاته وتأملاته الاستنباطية من جهة وكذا في الناحية الشكلية المنهجية من جهة أخرى؛ فالمفسر كان يذيّل أغلب السور التي تدبرها بجملة من الملاحق منها تلك التي يجمع فيها الآيات التي تتناول موضوعا واحدا في القرآن كله ثم يدرسها دراسة تكاملية مما لم يسع المقام لسرده أثناء التدبر[1]، ومنها تلك التي خصها بالمستخرجات البلاغية وهذه الأخيرة كانت حاضرة في أغلب السور التي أردفها بملاحق[2]، ولم يستغن عنها كما فعل مع غيرها بعد أن اشتد عليه المرض، ففي المجلد التاسع وانطلاقا من تدبر سورة (القصص) وما جاء بعده اكتفى بها فقط.

وفي هذه الملاحق يجمع المفسر كل ما تحدث عنه مما يدخل في باب البلاغة أثناء تدبره للسورة، ويرتبها حسب ترتيب الآيات التي وردت فيها ويذكرها بإيجاز، وكأنه يقدم خلاصة بلاغية جاهزة لمن أراد تذوق الفنون التي جاءت بها السورة وهذا من مزايا هذا التفسير.

---

[1] – يقول مثلا: "هذه النصوص تحتاج دراسة تكاملية تحليلية أستعين بالله العظيم الوهاب على تدبرها هنا، إذ لقلتها لا تحتاج فرزا في ملحق خاص بالنبي الرسول "يونس" υ". معارج التفكر، مج11، ص630.

[2] _ قلت أغلب وليس كل لأن هناك سور لم يجعل لها ملاحق مثل سورة الفيل، وسور جعل لها ملاحق لكن لا توجد فيها ملاحق للمستخرجات البلاغية مثل سورة (الفلق والناس). ينظر: معارج التفكر، مج2، ص14/ مج2، ص43/مج2، ص88.

ملاحق لتدبّر سورة الشمس

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات

الملحق الثاني: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن

❁ ❁ ❁

(٦)

الملحق الأول
مستخرجات بلاغيّة ممّا اشتملت عليه السورة من بلاغيات

(١) التأكيد الرّبّانيُّ بالقسم بظواهر كونيّة هي من بدائع وعجائب صُنْع الرَّبّ جلّ جلالُه، ومن آثار علمه وحكمته، على قضيّة الجزاء يوم الدّين، الذي هو من مقتضيات حكمته الظاهرة في كلّ ما خَلَقَ وبَرَأَ، بَعْدَ أَنْ وضع الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحان والتكليف.

(٢) الانسجام في كلمات السورة وآياتها، وهو من المحسنات البديعية اللّفظية، وهو أن يكون الكلام في مفرداته وجُمَلِه منساباً انْسِيابَ الماء في مجاريه السَّهْلَة، مُتَّحَدّراً ليّناً، بسبب التلاؤم بين كلماته وجُمَلِهِ، وعذوبة ألفاظه، وجمال تَمَوُّجَات فقراته، وخلوّه من التعقيد والتنافر، وخلُوّه من كلّ ما يَنِدُّ عن النطق، أو يَنْفِرُ منه السّمع.

(٣) من المحسنات البديعيَّة في السورة ما يُسمَّىٰ «مراعاة النظير»، فبيّن الشمس وضُحاها، والقمر إذا تلاها، واللّيل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، تناسبٌ وائتلاَف، رُوعي فيه ضَمُّ النظائر إلى النظائر.

(٤) من المحسنات البديعيّة اللفظية في السّورة السَّجْع المحبّب الذي لا تكلُّفَ فيه.

المطلب الثالث: فنون البلاغة في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

كُتب (معارج التفكر) بلغة عالية جزلة واضحة ولا غرو في ذلك؛ فمؤلفه من أرباب البلاغة حيث أفردها بالتأليف تنظيرا، وعُني بها في تفسيره التدبري تطبيقا، فوظف علوم البلاغة كلها من بيان وبديع ومعاني في ثنايا تدبره التحليلي، بل كان يختم حديثه عن كل سورة بملحق بلاغي يجمع فيه ما تناثر الحديث عنه في السورة في موضع واحد وهذا لتضلعه ورسوخ قدمه في هذا الفن؛ وفي هذا المطلب سأذكر نماذج من صلب التفسير وأخرى من الملاحق وأوزعها على فنون البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع في فروع ثلاثة.

الفرع الأول: علم البيان.

يراد بعلم البيان إيراد المعنى الواحد بطرف مختلفة، وينقسم إلى أقسام فرعية اهتم مفسرنا بها جميعا، إذ تجد للقسم الواحد الكثير من النماذج التطبيقية، وقد تناولها بالتحليل والتوضيح وبيان دورها في أداء المعنى، وسأكتفي بالتمثيل لكل واحد منها بمثال أو اثنين وأحيل إلى غيرها.

الاستعارة: ﴿ ﴾ الأعراف: ١٨٧

قال المفسر -رحمه الله- أثناء تدبره للآية: "يلاحظ الأديب الذواق للأدب الرفيع أنه استعير في هذه الجملة "الثقل" للدلالة على تعذر وصول المخلوقات المدركة في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن، إلى العلم بوقت قيام الساعة...فجاء التعبير بأن العلم بوقت قيام الساعة ثقيل على أهل السموات وأهل الأرض، مفيدا أنهم عاجزون عن الوصول إلى العلم به، فمن لوازم الشيء الثقيل أن لا يُستطاع رفعه...وما كان وقت الساعة في مكان عميق مخفي عن أهل السموات والأرض، كان الغرض من رفعه من مكانة العلم به، لكنهم لا يستطيعون رفعه، فهم لا يستطيعون التوصل إلى العلم به.

إن هذا التعبير لمن أدق التعبيرات وأبرعها، وأجمعها للأفكار التي يراد التعبير عنها، مع أدائه للغرض الجمالي البلاغي الفني، وقد أدت كلمة "ثقلت" الغرضين معا.

1. الغرض الفكري.
2. والغرض البلاغي الجمالي الفني"[1].

الكناية: ﴿ ﴾ الفجر: ١٤

تدبر المفسر الآية فقال: "وهذا التعبير القرآني كناية عن مراقبة الله تعالى للمجرمين دواما، في كل الأزمان حتى في أقل وحداتها وأصغرها، مع شمول علمه لكل حركة وسكنة من حركاتهم وسكنتهم، وبما أنه حكيم عدل منتقم جبار، وله سنة في عباده ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل فيها...وفي هذا إلماح إلى إنذار ووعيد بعذاب وإهلاك لكل المجرمين، متى وصلت إلى مثل الحالة التي وصل إليها المعذبون المهلكون الغابرون"[2].

التشبيه: ﴿ ﴾ الواقعة: ٢٣ .....الآية

قال -رحمه الله-: "هذا التشبيه ذكر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، ولم يذكر فيه وجه الشبه، فهو من قبيل التشبيه المرسل، لذكر أداة التشبيه فيه، ومن التشبيه المجمل لعدم ذكر وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل"[3].

وهنا ذكر الشيخ الصورة البلاغية ولم يوضح الغرض منها، وربما يرجع ذلك لوضوحه وهو توجيه السامع لفعل ما يتيح له الفوز بهذه الحور.

---

(1) _ معارج التفكر، مج5، ص84- 85. ينظر: مج5، ص81/ مج8، ص388/ مج11، ص784-785/ مج 15، ص65.

(2) _ معارج التفكر، مج1، ص530. ينظر: مج15، ص197.

(3) _ معارج التفكر، مج2، ص525. ينظر: مج11، ص791-792/ مج14، ص92.

المجاز المرسل: ﴿ ﴾ الواقعة: ٢٣

يقول المفسر متدبرا الآية: "ونجد هذا المجاز المرسل في جملة: ﴿ ﴾، تعبيرا عما يفعله البارئ جل وعلا بالإنسان، للدلالة على أن الإنسان قد تسفل باختياره الحر، إتباعا لشهواته وأهوائه وكبره وعجبه بنفسه حتى أوصل نفسه إلى الدركة السفلى بكفره وسلوكه، وهذا ملزوم، فرده الله ردا عقابيا إلى أسفل سافلين، وهذا لازمه، فأطلق اللازم متضمنا إرادة الملزوم"[1].

وهذه الأمثلة تبين بوضوح عناية الشيخ بعلم البيان، وحرصه على استخراج الصور البلاغية لما في لذلك من دور في بيان المراد من كلام الله تعالى في الآية قيد التدبر، وحرصه كذلك على بيان الهدف والغرض من إيراد هذه الصور وأنه ليس لمجرد الإمتاع البلاغي، وإن كانت لا تشمل جميع ما تعرض له الشيخ في تفسيره إلا أنها تعطي صورة عن مدى تطبيقه للقاعدة التي جعل على نفسه تطبيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

الفرع الثاني: علم المعاني.

علم المعاني يرتكز على الخبر والإنشاء، ويندرج تحت كل واحد منها عدد من الموضوعات فيدخل في الإنشاء الأمر والنهي والاستفهام، ويدخل في الخبر التأكيد والتقديم والتأخير....وقد ورد علم المعاني في "معارج التفكر" في كثير من المواضع ، وسنكتفي بالتمثيل ببعضها:

الاستفهام:

يقول المفسر أثناء تدبرلسورة (فاطر) "وفي هذه السورة من خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طلب الإفهام إلى معان أخرى ما يلي:

(1) في قوله تعالى في الآية (3): ﴿ ﴾ "فالمراد بالاستفهام هنا التلويم والتوبيخ والتقريع للمشركين، إذ يصرفون عن الحق إلى اعتقاد الباطل وإتباع ضلالاته.

(2) وفي قوله تعالى في الآية (8): ﴿ ﴾، المراد بالاستفهام هنا الإعلام وانتزاع الإقرار بأنه لا يستوي من زين له سوء عمله فرآه حسنا فاندفع في غيّه، مع من لم يزين له ذلك بل استبان الحق والعمل الصالح، ورأى العمل السيئ سيئا فاجتنبه، وظاهر أن الاستفهام خارج عن أصل دلالته وهو طلب الإفهام.

(3) وفي قوله تعالى في الآية (26): ﴿ ﴾، المراد بالاستفهام هنا التوجيه للنظر التفكري في عقاب الله لمكذبي الرسل الأولين"[2].

القصر:

في قوله تعالى: ﴿ ﴾ مريم: ٦٤

قال المفسر: "في هذه العبارة قصر لتنزل الملائكة من مواقعها في السماوات إلى الأرض على أحوال توجيه الأمر بالتنزل، فهم بسببه يتنزلون. فهذا قصر حقيقي، لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وهم يفعلون ما يأمرهم به. وهو من قصر موصوف وهو "تنزلهم" على صفة، وهي الأمر الرباني لهم. ولأداة النفي هنا: النفي والاستثناء"[3].

الإيجاز[4] والإطناب والمساواة:

يقول المفسر في سورة "الزخرف": "ومن الإيجاز بالحذف في السورة ما يلي:

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص420- 421. ينظر: مج10، ص681/ مج10،ص766.

[2] _ معارج التفكر، مج11، ص235.

[3] _ معارج التفكر، مج7، ص671. ينظر: مج6، ص731/ مج7، ص672.

[4] _ وقد وقفت على رسالة ماجستير خصصت لدراسة بلاغة إيجاز الحذف في تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حبنكة الميداني، من إعداد رنا لازم إبراهيم الخالدي، إشراف: زاهدة العبيدي، كلية التربية، جامعة الموصل.

قوله تعالى خطابا لرسوله ρ يعلمه ما يقوله للمشركين: ژ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ژ الزخرف: ٢٤، أي: قال: أتستمرون متبعين ما وجدتم عليه آباءكم، ومحافظين على تقليدهم والسير على آثارهم ژ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ژ مما يضمن لكم النجاة والسعادة الأبدية يوم الدين"[1].

الإطناب:

قال المفسر: "ومن الزيادات الإطنابية المفيدة طريقة الاحتراس، وتكون بزيادة إطنابية يدفع بها المتكلم إيهاما اشتمل عليه كلامه، ومنها قول الله عز وجل لموسى a: ژ ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئى ئى ئى ئى ئى ئى ی ی ی ی ژ النمل: ١٢، إن عبارة (تخرج بيضاء) توهم أن بياضها ربما كان عن برص، فجاءت عبارة (من غير سوء) تكميلا احتراسيا لدفع هذا الإيهام، ومن الزيادات الإطنابية المفيدة التصريح بما هو مفهوم من العبارة السابقة له لغرض التوكيد ودفع توهم غير المراد ومنها قول الله Y بشأن فرعون وملئه من قومه عن الآيات الباهرات التي أجراها لموسى a: "وجحدوا بها" تدل على أنهم كانوا على علم بأنها آيات خلق من الله، وجاءت عبارة "واستيقنتها أنفسهم" إطنابا مفيدا فيه توكيد علمهم المفهوم من جحودهم، وفيه دفع توهم أن جحودهم لم يكن مصحوبا بيقين كامل مخالف لما أعلنوه صراحة بألسنتهم"[2].

وهذه جملة من الأمثلة التي أوردها المفسر في علم المعاني وقد نبهت إلى نماذج من أنواع متعددة تدخل ضمن هذا العلم، وهي تطلعنا على الحس البلاغي للمفسر، وقدرته على استخراجها وبيانها، ومما يحسب للشيخ هنا هو تنبيهه على الغرض من إيرادها ملتزما بما قعد في مقدمة تفسيره.

الفرع الثالث: علم البديع.

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، وهذه الوجوه ضربان: أحدهما يرجع إلى المعنى وآخر يرجع إلى اللفظ، وقد ذكر منه المفسر الكثير ونقتصر نحن على الآتي:

في قوله تعالى: ژ ئا ئا ئه ئه ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئو ئى ئى ئې ئې ئى ئى ئد ژ هود: ٤٤، ويعنون قائلا: ما في هذه الآية (44) من إبداع بلاغي أدبي، ثم يقول: "في هذه الآية إبداعات أدبيات رائعات" ويذكر بعدها تسعة أنواع منها: ""المناسبة" التامة بين: "ابلعي" و "اقلعي" فبينهما تناسب بديع، وتلاؤم في اللفظ، وهذا يدخل فيما يسمى عند علماء البديع: "ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف اللفظ مع المعنى""[3].

ويقول في بلاغيات سورة العصر، "من بلاغيات هذه السورة "ربط أول السورة بآخرها في سجع واحد، مع عدم التزامه وسطاً، إذ لو التزم وسطاً لتناقض مستوى جمال اللفظ في السورة ولصار شبيهاً بسجع الكهان، ولو ترك السجع في آخرها لاسترسلت النفس تتطلب المزيد من الكلام، ولم تشعر بانتهاء السورة، فمجيء السجع قد كان بمثابة حرف الروي في آخر الشعر الذي يشعر بانتهاء البيت أو القصيدة"[4].

وعند تفسيره قوله تعالى: ژ ئۇ ئۇ ئې ئې ئى ئى ئد ی ی ی ی ژ النمل: ٢٢ قال: "من المحسنات اللفظية الجميلة بديعية الجناس، ومن أنواعه ما يسمى (الجناس المزدوج) أو (الجناس المكرر) أو (لجنس المردد)، وهو أن يلي أحد المتجانسين الآخر، ومن أمثلته كما ذكر علماء البلاغة قول الله Y حكاية لما قاله الهدهد لسليمان a: "...وجئتك من سبأ بنبأ يقين"، وهذا من الإغراق في التقسيمات عند البلاغيين، وهو في الحقيقة من الجناس الناقص"[5].

وعندما وصل إلى قوله تعالى: ژ ٱ ب ب ب ب پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ

---

[1] _ معارج التفكر، مج12، ص792.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص221.

[3] _ معارج التفكر، مج10، ص401 وما بعدها.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص619.

[5] _ معارج التفكر، مج9، ص223.

ڤ ڤ ڤ ڗ فاطر: ١٢ قال: "في هذا البيان من البدائع المعنوية لف مجمل ونشر مفصل، فاللف المجمل في عبارة (وما يستوي البحران) فقد ذكر فيها البحران على طريقة اللف المجمل، والنشر جاء في عبارة (هذا عذب...أجاج"، ويحسن مثل هذا الإجراء البديع لما فيه من مساعدة للفكر على استيعاب الأقسام بعد ذكر الجامع بينها، وتحديد حدود الكليات والجزئيات"[1].

و هذه الأمثلة هي فيض من بحر ما ذكره المفسر في باب البديع، وقد اكتفيت بها باعتبار أن الوقوف عليها والحصول على الأمثلة التطبيقية سهل متيسر، حيث يجد الباحث ضالته بيسر وسهولة في الملاحق التي ختم بها تدبره[2].

وصفوت القول في ذلك كله أن الحس البلاغي في تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر" يمثل أنموذجا لتوسع المعاصرين في عنايتهم بالبلاغة العربية، جمع فيه بين طريقتين اثنتين لا غنى لكل واحدة منهما عن الأخرى، الأولى تحدث فيها عن الفنون البلاغية في مواضعها ليستفيد منها المتدبر وهو يتصفح تفسيره ويعرف مناسباتها وسياقها الذي جاءت فيه، وهذه الطريقة معهودة عند السلف من أهل التفسير وغيرهم، والثانية جمع فيها الصور البلاغية في ملاحق يستفيد منها من يريدها على وجه التحديد فتغنيه وتختصر عليه الجهد والوقت، وهذا من بين مميزات تفسيره التدبري، ومن الإيجابيات التي تحسب للمفسر، وقد اهتم المفسر بها كثيرا وما جاء في هذا البحث هو لمحة عامة موجزة للتعريف بجهوده في هذا الباب، وإلا فإن علوم اللغة في تفسير "معارج التفكر" تحتاج إلى عدد كبير من البحوث لتوفيها حقها، وقد وقفت على عدد منها وأدعو الباحثين إلى الانكباب عليه واقتناص البحوث التي لم يطرق بابها بعد.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب الدرس البلاغي عن المفسرين المعاصرين، والتي ركزنا فيها بشكل خاص على تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر" يمكن تسجيل جملة من النتائج ولعل من أهمها:

- أن فنون البلاغة كانت لها مكانتها الخاصة في التفاسير القديمة والمعاصرة على تفاوت بينها بين مقل ومكثر.

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص263/ ينظر: مج1، ص619/ مج2، ص260، مج5، ص331، مج9، ص223.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص508/ مج6، ص105/ مج9، ص115/ مج10، ص204/ مج11، ص123/ مج13، ص710/مج15، ص78.

- أنّ عبد الرحمن حبنكة الميداني واحد من أهم الشخصيات الإسلامية المعاصرة التي برزت في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

- أن المفسر كانت له جهود بارزة في علم التفسير تنظيرا وتطبيقا، شكلت الركيزة التي انطلق منها في العملية التفسيرية ومهّد بها لتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

- أن البلاغة العربية بفنونها المتنوعة حرص على توظيفها المفسر أثناء تدبره لكتاب الله، والنماذج التطبيقية في ذلك كثيرة.

- يتسم التفكير البلاغي عند المفسر بالعمق والشمولية، وعلّة ذلك أن له باع طويل في علم التفسير، وقدم راسخة في علوم اللغة بمختلف فنونها.

- اتضح من البحث أن أسمى غاية للمفسر تجسدت في توظيف علم البلاغة من أجل الكشف عن جماليات القرآن الكريم، والوقوف على أسرار إعجازه.

- تأثر مفسرنا بالقرآن الكريم وإعجازه فجاءت البلاغة عنده في أرقى بيان، لذا يمكن القول أنها لازالت تجود بالثمار عبر مر العصور، وصدق من قال أنها العلم الوحيد الذي لم ينضج ولم يحترق.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، 1394هـ/ 1974م، الهيئة المصرية العامة

للكتاب.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: مُحَمَّد أبو الفضل، ط1، 1376هـ/ 1957م، دار المعرفة، لبنان.
- البلاغة العربية أسسها علومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط1، 1416هـ/ 1996م، دار القلم، دمشق، سوريا.
- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم ابن جزي، ت: عبد الله الخالدي، ط1، 1416هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: لبنان.
- التعريف بكتاب (معارج التفكر ودقائق التدبر)، مجد مكي، ط1، 1427ه/ 2006م، دار القلم، دمشق: سوريا.
- التفسير البسيط، أبو الحسن الواحدي (ت: 468هـ)، ط1، 1430هـ، عمادة البحث العلمي، جامعة اللإمام مُحَمَّد بن سعود، السعودية.
- الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، ت: هشام سمير البخاري، د.ط، 1423هـ/ 2003م، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية.
- عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر، عائدة راغب الجراح (ت: 1423ه)، ط1، 1422 ه/2001م، دار القلم، دمشق: سوريا.
- فتح القدير، مُحَمَّد بن علي الشوكاني ، ط1، 1414هـ، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425ه)، **ط1**، 1400ه/ 1980م. **ط5**، 1433ه/ 2012م، دار القلم، دمشق: سوريا.
- قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، رشيد بوعافية، دكتوراه، إشراف: منصور كافي، 1440ه/ 2019م، جامعة باتنة1، الجزائر.
- القواعد الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، ط1، 1420هـ/ 1999م، مكتبة الرشد، السعودية.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، أبو القاسم الزمخشري، ت: عبد الرزاق المهدي، د.ط، د.س، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو مُحَمَّد عبد الحق بن عطية، ت: عبد السلام مُحَمَّد، ط1، 1413هـ/ 1993م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.
- مختصر في قواعد التفسير، خالد السبت، ط1، 1426هـ/ 2005م، دار ابن القيم، السعودية.
- معارج التفكر ودقائق التدبر -تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله Y"-، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت: 1425ه)، ط2، 1433ه/ 2012م، دار القلم، دمشق: سوريا.